

مهرجانات في ألمانيا وبريطانيا في الذكرى الـ ٢٥٠ لوفاته

هاندل الأوروبي وجنة الموسيقى



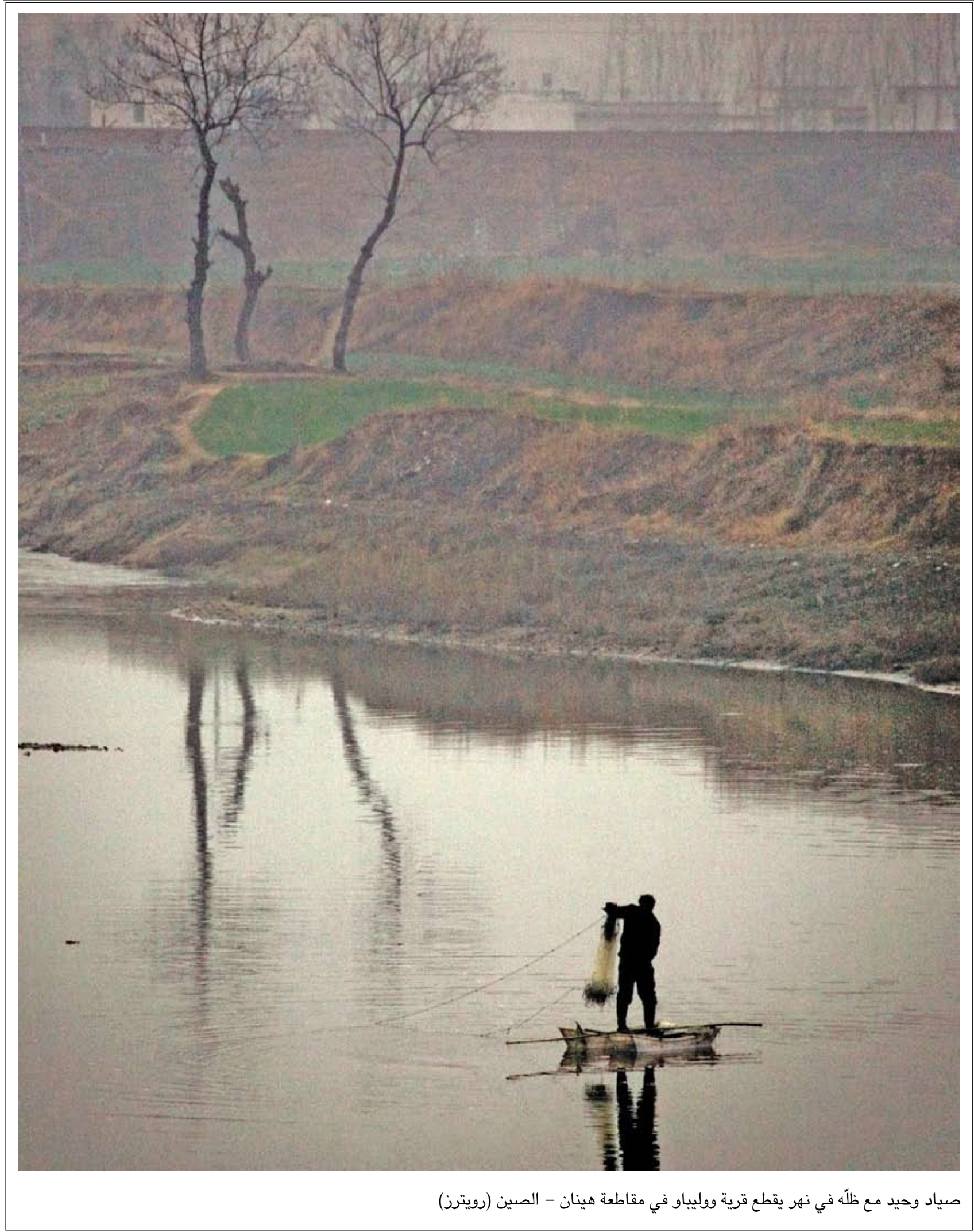
ناتر صالح

■ هاندل (هيندل بحسب اللفظ الألماني، أو هاندل الإنكليزي) هو أحد أعظم الموسيقيين الأوروبيين على مر العصور، نموذج بارز للموسيقي الأوروبي «الشامل»، فهو ولد وتعلم في ألمانيا، وأتقن فنون الموسيقى في إيطاليا، وعاش وأبدع في بريطانيا. لهذا السبب اختار منظمو مهرجان هاندل في هاله في 4-14 حزيران (يونيو) المقبل «هاندل الأوروبي» عنواناً لمهرجانهم المقام بمناسبة الذكرى الـ ٢٥٠ لوفاة الموسيقار.

ولد هاندل في مدينة هاله (ولاية ساكسن - أنهالت الألمانية) اليوم) يوم ٢٣ شباط (فبراير) ١٦٨٥، قبل شهر واحد من ولادة زميله في العبقورية الموسيقية يوهان سباستيان باخ في مدينة أيزناخ القريبة، وفي هاله تعلم العزف على الكمان والأورغن ومبادئ الموسيقى وهو في السابعة بدعم وتأييد من أمير سكسونيا الذي أقتع والده بضرورة ذلك (كان يود لو يدرس ابنه القانون). وكان أستاذه عازف الأورغن تساخو (١٦٦٣-١٧١٢) يدرسه مختلف أنواع الموسيقى الأوروبية، ويشرح له حسناً وسيناً مشاهير الموسيقيين، فنشأ متفتحاً على الموسيقى الأوروبية وأجاد التأليف بمختلف الأساليب. التقى عازف الأورغن ديتريش بوكستهوده (١٦٣٧-١٧٠٧) عام ١٧٠٣، وقد زاره بصحبة صديقه العازف والمؤلف يوهان ماتيسون (١٦٨١-١٧٦٤)، حيث تباحثوا في إمكان خلفته في وظيفته كعازف أورغن في كنيسة ماريا في مدينة لوبيك. كان شرط بوكستهوده العجوز، أن على من يخلفه في وظيفته الزواج من ابنته. ورفض الإثنان هذا الشرط، مثلما رفضه باخ قبل عامين. وكان هاندل قد عين في تلك السنة عازفاً للأورغن في الكنيسة الكالفينية في هاله، إلا أنه انتقل إلى هامبورغ عاصمة الفن والثقافة والثروة في ألمانيا عام ١٧٠٤، حيث ألف أول أوبرا له عنوانها «الميرا»، وقدمها هناك، وسرعان ما ألحقها بأوبرا «ثيرون»، وهي بداية سلسلة طويلة من الأوبرات الجادة التي ألفها وبلغ عددها ٤٥ أوبرا.

سافر إلى إيطاليا في العام ١٧٠٦، فزار روما وفينيسيا وفلورنسا وناپولي حيث التقى دومنيكو سكارلاتي (١٦٨٥-١٧٥٧) وأباه الساندرو سكارلاتي (١٦٦٠-١٧٢٥)، وكذلك كورلي (١٦٥٣-١٧١٣) وفيفالدي (١٦٧٨-١٧٤١)، ألف حوالي مئة كانتاتا والكثير من الأوبرات والأوربيات خلال السنوات الثلاث التي قضاها هناك، حيث أتقن أساليب التأليف الإيطالية، وأثرت خبرته في التأليف لموسيقي الأدوات (الكونشرتو خصوصاً) والغناء (الكانتاتا على النمط الإيطالي، والأوبرا).

عينه حاكم هانوفر، غيورغ لودفيغ، عند عودته قائداً للفرقة الموسيقية لديه في ١٧١٠، لكنه طلب إجازة طويلة على الفور وذهب إلى لندن لتقديم أوبرا «رينالدو»، التي قدمت بالفعل أوائل ١٧١١. عاد إلى لندن للمرة الثانية في خريف ١٧١٢، حيث صرفت له الملكة أن مبلغ ٢٠٠ جنيه سنوياً، بذلك تارح بين لندن وهانوفر، ولم تكن العلاقة بين غيورغ لودفيغ وأن خالبيه من التوتر، وكان حكام هانوفر يطمعون في الحصول على التاج البريطاني، لكن الملكة أن كانت تتفاوض في السر لتعيين ولي عهد من عائلة ستيوارت. بعد وفاة الملكة المفاجئة عام ١٧١٤، وجد نفسه في خدمة حاكم هانوفر من جديد، بعد إعلان غيورغ لودفيغ ملكاً على بريطانيا باسم جورج الأول. ولحسن حظ هاندل، كان مخدومه القديم - الجديد الملك جورج محباً للموسيقى، فغض النظر عن تارجه، ألف هاندل السريناد «موسيقى الماء» عام ١٧١٧، وهو عمل حاز إعجاب جورج الأول، إذ أمر بتقديمه ثلاث مرات في الأمسية نفسها وهم يتنزهون على متون المراكب في نهر التيم، وقاد هاندل فرقته المؤلفة من خمسين عازفاً وهم على متن مركب آخر. واشتهر عمله «موسيقى الألعاب النارية الملكية» هو الآخر، وقد ألفه عام ١٧٤٩ احتفالاً بصلح إي - لا - شاييل - Aix - la - Chapelle. ويعتبر أورانوريو المسيح من بين أشهر أعماله، إذ ألفه عام ١٧٤١، وقدمه في بلدن في ١٧٤٢ وهو من الأعمال التي لم يتوقف تقديمها منذ تأليفه حتى اليوم، بعكس الكثير من أعمال معاصري هاندل الذين نسيت أعمالهم بعد موتهم وتعين إعادة اكتشافها. وأبرز مثال على ذلك، أعمال باخ التي أعاد تقديمها موسيقي الماني احتفالاً بالذكرى الـ ٢٠٠ لميلاده في ٣ شباط (فبراير) الماضي، هو فيلخس مندلسون - بارتلدي (١٨٠٩-١٨٤٧)، مال هاندل إلى تأليف الأورانيو في العقدن الأخيرين من حياته، والأورانيو عمل درامي غنائي موسيقي، يستمد موضوعه عادة من «الكتاب المقدس»، ويعود الفضل إلى هاندل في كتابة الأورانيو باللغة الإنكليزية، وكتب عدداً منها بداها بأورانيو «استر» (١٧٣٢)، وهو من بين أجمل أعماله، إلا أن أياً منها لم يبق أورانوريو المسيح في شهرته، ولا يزال الإنكليز يقفون احتراماً عند تقديم كورس «مللويبا»، الذي قال عنه هاندل: «يخيل لي رؤية الجنة، وفي



صياد وحيد مع ظلّه في نهر يقطع قرية ووليبوا في مقاطعة هينان - الصين (رويتزن)

نيسان. وستقدم القناة أكثر من ٤٠ من أوبرات هاندل خلال هذا العام، تبث كل يوم ثلثاء. أما في ألمانيا، فبدأ الاحتفال بسنة هاندل يوم ميلاده كذلك، وستقدم أعماله في البيت الذي ولد فيه، وفي قاعات ولاية ساكسن - أنهالت، وتبث الحفلات محطة وسط ألمانيا (MDR) من مدينة لايبزيغ، وستقدم ست أوبرات من أشهر أعماله على مسرح أوبرا مدينة هاله ومسرح غوته، وسيقام مهرجان هاندل في مدينة هاله، حيث يقدم عازفون مشهورون وفرق راقية ٥٠ نشاطاً موسيقياً خلال أيام المهرجان العشرة. والعام ٢٠٠٩ من الأعوام المتميزة في الموسيقى الأوروبية، وسيكون مناسبة لسماع أعمال موسيقية لعدد من المؤلفين يندر تقديمها في السنوات العادية، إذ إن تقديم كل أوبرات هاندل أو أورانورياته، أو بث كل أعمال هابيدن للبيانو، أو سفونياته وأورانورياته، أو أعمال برسل ومندلسون سيكون متعة فائقة لمحبي الموسيقى الأوروبية، سيما وأن الكثير منها يُبثل حياً عبر محطات الراديو.

الدرامي في شكل محسوب، إذ يتوالى تسلسل القطع فيها على هذا الأساس. وبرع هاندل في تطوير شكل كونشرتو غروسو، وهو شكل موسيقي ظهر في إيطاليا، أشبه بمباراة موسيقية بين مجموعة كبيرة من أدوات الأوركسترا (كونشرتو)، ومجموعة صغيرة من الأدوات (كونشرتينو). كما ابتدع وطور ما يعرف بكونشرتو الأورغن، وهذه كلها كانت تقدم بين فصول الأوبرات التي يكتبها، بغرض الترويج عن النفس.

والبرنامج الاحتفالي البريطاني بمناسبة سنة هاندل متنوع، إذ بدأ مهرجان هاندل في يوم ميلاده ٢٣ شباط بالتعاون بين متحف هاندل في لندن، جمعية هاندل والجمعية البريطانية للهاريسيكورد، وسيستمر خلال عام ٢٠٠٩. وسيستلم يوم هاندل الأوروبي بإدارة محطة راديو «بي بي سي» - القناة الثالثة، حيث ستشترك ٤٠ محطة راديو أوروبية في البث الحي يوم الأحد ١٩ نيسان المقبل، وتنقل الحفلات الموسيقية من مختلف المدن الأوروبية تناعاً، وسيكون هذا اليوم قمة نشاط القناة الثالثة في أسبوع هاندل بين ١٢ و١٨

وسطها الرب العظيم، أعجب البريطانيون بهاندل، ومنحوه الجنسية البريطانية في ١٧٢٧، وأخذوا يعتبرونه أحد أهم مؤلفيهم الموسيقيين على مر العصور، إلى جانب ويليم بيرد وهنري برسل الذي تحتفل بريطانيا بالذكرى الـ ٣٥٠ لولادته هذا العام أيضاً (وستنظم جامعة لندن مؤتمرأ علمياً مشتركاً عن هذين الموسيقيين في ١٩-٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل، عنوانه «برسل وهاندل والأدب»). فقد هاندل بصوره تماماً في ١٧٥٣، لكنه استمر في التأليف مستعيناً بسكرتيره وكاتبه جي سي سميت (وهو صديقه من مدينة هاله، واسمه الأصلي يوهان كريستوف شميت ١٦٨٣-١٧٦٣)، توفي في ١٤ نيسان (أبريل) ١٧٥٩ ودفن في كاتدرائية وسمنستر قريباً من أاداته الموسيقية المحببة، الأورغن.

موسيقى هاندل أسيرة، مؤثرة، عميقة العاطفة، قريبة إلى الوجدان، لكنها في الوقت نفسه متينة النيان، متكتمة في شكلها الموسيقي، تميز أوبراته وأورانورياته بأبعادها الدرامية، ويتوظف «المقام» الموسيقي في خدمة التأثير

عجوز يعمل في الرواية الأولى على تحويلها إلى لوحة فنية مجسدة من جهة، وإلى استعادة حبه القديم الضائع من جهة أخرى، بينما يتكفي في الرواية الثانية باستعادة ما فقد من جثمان الحياة وبريقها الخلبى. وثمة ما يعيدنا إلى توماس مان الذي جعل بطله الكاتب الستيني في «موت في البندقية» يتعلق بفتى غص في الرابعة عشرة من عمره ويظهر بسببه أكثر الأسئلة صعبة عن العلاقة بين الحب والموت وبين الحياة والكتابة. وثمة ما يعيدنا إلى رواية «رجل عاشق» لمارتن فالنر التي تُورخ لعلاقة الحب المأسوية التي جمعت بين شاعر ألمانيا الأكبر غوته وهو في الرابعة والسبعين من عمره وبين حبيبته أولريكة التي لم تكن قد بلغت العشرين بعد، وإذا كانت ثمة ملاحظات أخيرة على الرواية فهي تتعلق بميل ياسين رفاعية المتزايد إلى التصعيد العاطفي المبلوررامي كما إلى الوصف والترسل الأدبي والإفاضة الانفعالية ذات المشنا الشعري. وكما أن الأسلوب يظل دائماً في الوتيرة نفسها، يظل العصب الشعوري مدفوعاً دائماً إلى اقصاد، كما لو أن زمن الرواية مثبت عن الزمن العادي المتفاوت في وناثره وأحواله. ومع ذلك، فإن هذه الملاحظات لا تمنعنا من الاستمتاع برواية رفاعية والتفاعل مع لحظاتها الحارة وتوجهها الإنساني.

وأضغاث الذكريات المشتركة التي يفضغفانها معاً في فضاء العزلة البار. يبدو كل طرف من أطراف رواية «أهداب» وكأنه يبحث عن شيء ينقصه حتى لو وقع هذا الشيء في خانة المحرم أو المستهجن أو الخارج على الأعراف. فأهداب تحاول الاستعاضة عن تسلط الأم وقسوتها بدفء الأب وحنانه، ولأن هذه المسألة محكومة بالتكوير من الضوابط الأخلاقية والجسدية، فهي تحاول عبر عصام استكمال الصورة الناقصة لعلاقة الابنة بالأب. الأب فؤاد بصورة الفتاة الأخرى هدياء التي أحبها عصام في مطالع شبابه وقدمها في شكل مباحث إثر اصابتها بمرض عضال...

لعبت «لوليتا»، وحدها هي ما تحيل إليه رواية «أهداب»، لياسين رفاعية، بل ثمة ما يعيدنا في غير زاوية إلى رواية «الجميلات النائمات» لكواباتا، ففي كلتا الروائيتين فتاة رائعة الجمال تستلقي بجسدها الفاتن والعراري أمام رجل

ودمامة، أسهمت إلى حد بعيد في سعي كل من الأب وابنته الفائقة الجمال إلى درء هذه القسوة الأب الذهاب بعلاقتهم الطبيعية التي ما يتجاوزها بقليل، ولو أن هذا القليل ظل بحسب الرواية في دائرة غامضة وغير محسومة تماماً. لا تشتمل رواية رفاعية على الكثير من المواقع والأحداث، وهي في أي حال لا تتجاوز الصفحات المئة والستين. فالرسام السبعيني عصام يلتقي بفؤاد وابنته بمناسبة افتتاح معرضه التشكيلي حيث يتبادل الفنان والفتاة نظرات الإعجاب التي تقودهما بسرعة إلى حب عاصف يتوافر مسرحة الملثم من طريق رغبة الفتاة في تعلم الرسم ورغبتها المماثلة في أن تحصل على بورتريه شخصي بريشة الفنان الذي أنجذبت إليه. لكن المفاجأة تثلث بعد ذلك في طلب الفتاة من عصام أن يرسمها عارية وفي جلوسها أمامه مرات عدة من أجل إنجاز اللوحة الأهم في حياة بطل الرواية التي أصرت تماماً بين الانحياز إلى الجسد الأنثوي الأصلي والمتدفق جمالاً وحيوية أمام ناظره، وبين الجسد الإبداعي الذي يزيد المتخيل تالفاً واكتمالاً. وحين قررت أهداب وفي شكل مفاجئ أن تتزوج من أحد الشبان الأثرياء، باتت اللوحة العارية هي العزاء الأهم للفنان المتروك لعزلته كما للآب فؤاد الذي جعله زواج ابنته يتقاسم مع صديقه العجوز لوعة الفقد

السبعين من عمره وبين صبية يانعة لم تتجاوز منتصف عقدها الثاني.

ولا بد من أن نتوقف في هذا السياق أمام امرين اثنين يتمثل أولهما في كون المؤلف يحاول التملص من موضوع السيرة المباشرة ليتلمسه مواربة عبر قصة «الحب» الغريبة التي تربط بين الفنان العجوز الذي يبدو من خلال السرد وكأنه ليس سوى المؤلف نفسه مع تعديل طفيف تمثّل في تحويل الروائي إلى رسام. أما الأمر الثاني الذي لا نستطيع إغفاله، فهو كون الموضوع المطروح على أهميته ليس جديداً على الأدب الروائي وبخاصة في شقّه العالمي، إذ لطالما شكّل فارق العمر الكبير بين طرفي العلاقة العاطفية الهاجس الأكثر إقلاقاً للبشر بوجه عام وللكتّاب والشعراء والفنانين على وجه الخصوص، وفي رواية رفاعية ما يتقاطع مع غير عمل أدبي سابق وبخاصة رواية «لوليتا» لنابوكوف التي تتشارك مع «أهداب» في كون هذه الأخيرة تتصدى أيضاً للعلاقة العاطفية والحسية العربية التي تقوم بين أهداب، بطلة الرواية. وبين أنبيها فؤاد، والتي لا تتردد الفتاة في الاعتراف بها وفي اطلاع حبيبها الفنان على بعض تفاصيلها ومجرياتها. ويبدو أن الطابع القاسية للأمر، التي ارتبط بها الأب فؤاد بسبب ترانها الفاحش متناسياً ما هي عليه من قبح

شوقي يزيغ

■ بدا الكاتب السوري ياسين رفاعية في أعماله الأخيرة وكأنه يضيق إلى حد بعيد المسافة بين الرواية والسيرة الذاتية، شأنه في ذلك شأن الكثير من الروائيين العرب الذين راوا في حياتهم الشخصية معينا لا يرضون من القصص والموضوعات التي تستحق التدوين. وقد ترجم رفاعية هذا التوجه في روايته السابقتين «وميض البرق» و «الحياة عندما تصبح وهماً» اللتين تتمحوران حول علاقته بزوجته الراحلة أمل جراح وبيتها محكومين بمقدار عال من العاطفة الجياشة والنزوع السوداوي. وهو أمر غير مستغرب في أي حال باعتبار أن الرواية الأولى رافقت المراحل المبكرة من حياة أمل ومعاناتها اليومية القاسية مع المرض والألم، في حين أن الرواية الثانية بدت أشبه بقصيدة تابين جنازية للشاعرة الراحلة.

في روايته الأخيرة «أهداب» الصادرة عن دار الساسي، يحاول ياسين رفاعية أن ينادي بنفسه قليلاً عن إلامه الشخصية وقائع حياته المباشرة ليتحدث عن موضوع جديد هو موضوع العلاقة الصعبة وغير المتكافئة بين فنان عجوز تتجاوز

«أهداب» ياسين رفاعية

الحب اليأس بين فنان عجوز وفتاة مراهقة

آفاق

HORIZON

تيرات

شباب

آفاق

صحافة

أسرة

سينما

تراث